علي جعفر العلاق

قمر للبلاد الجديدة

« تداعيات علي ابن زريق الواسطي (*) »

يا لهذا العناء الذي
عاشرَ الروح عامين ،
كيف اهتدى ؟
نشّر ، الان ، قمصانه فوق بيتي ؟
بلّ بالقش ،
والندم المرّ صوتي ،
يا لهذا العناء ،
لقد سلّ روحي من دفئها ،
والضياع المحبَّب ،
جرّدها من عصافيرها الطيبه ،
قال لي :
في طريقك ارض
بلا تعب ، واغان
بلا كدمات ،
وذاكرة معشبه ..
قال لي :
لو ترى قمر الارض
ها انه ناضج ، وطريّ
(اتعلم ان الكواكب في الكرخ
يصعب توديعها ؟) (١)
قمر كالحصان : يهلهل في البرّ
يملأ بالذكريات عليقته
قمر كالصبية : اذ يتخطّى بها الجوع دغل الشباب البريء

قال لي :
هل تجيء ؟
يا لهذا العناء الذي دلّني :
قمر يسكن الكرخ ، متسع
لهموم الكثيرين ، منغلق
عن هموم الكثيرين ، لكنه — ربما كان ذلك
اعذب اوصافه —
طيب ،
فيه شيء من الشعر ..
(كم وطنا طيبا تستطيع
تشمم اشجاره ولياليه ؟.)

قال :
وطن ، مغلق
دون كل الرجال ..

★★★

وسادة وجهي ،
وغصن ماء ،
احمل في نعاسه علامة ،
يا قمر الكرخ ، ويا حجارة السماء
ولست انسى :
أن لي من عمركم عامين
تركت فيهما يديّ ،
عمري المبتلّ ،
جئت دونما عينين ..

★★★

آه واسط (٢)،
اذكر ، هذي العشية ، كل روازينها ،
اتذكّر دهلتها (٣) ليلة الفيضان
زرازيرها وهي تعترض الريح ،
واسطُ نائمة في دمي ،
مثلما الوشم في حنك امي ،
وواسط دشداشة
بلّل الماء اذيالها ،
لم يكن للخراب طريق الى دفئنا ،
او عصافيرنا الحيّة القلب
— ذاك الزمان
قفّة في المياه التي
عافها المدّ مخبوطة ،
ان ذاك الزمان
حسكٌ طيّع ،
وطنٌ كان يلعب فيه المحبون
يزهر في رمله السيسبان (٤)..
آه .. ما كنتُ غير صبيّ يشاجر اثوابه
ونواياه (كيف انقلبت

(*) : تعتمد القصيدة ، مع تحوير واضافة ، رحلة الشاعر علي ابن زريق البغدادي .

(١) واضح ان في القصيدة اكثر من تضمين من قصيدة علي ابن زريق البغدادي : لا تعذليه ..

(٢) ان واسط، هنا ، وارجو الا يكون ذلك تدخلا في حرية القاريء تمثل مدينة الواسطي وكل ما في ماضيه من طفولة ، اوجاذبية، او هموم اخاذة .

(٣) ربما كانت كلمة « الفرين » اكثر ترفعا وكياسة ، غير ان لكلمة « دهلة » ، كما ارى ، كثافة طينية واضحة .

(٤) السيسبان : نبات ، عال، واخضر ، وبهيج، لكنه مؤقت جدا.

الى كائن ،
يشبه الشجر المستحي ..؟)
واسط ، الان ، أمّ تعلّم اطفالها
كيف يجتمعون على صحن واحد ،
كيف يفقون في « غطوة »(٥) باردة ،
وتغنّي :
حديثك ،
ام مطرة الصيف ،
ما بلّلت عشبة واحدة (٦)
وتعاتب :
اني
اخبئك ، الان ، للساقيه
حين اعجز عن طفرها ..(٧)
وتعلمني :
فسحة
في همومك ، او مدخلا
في صباباتك الآتية ..
آه .. اذكر ،هذي العشية ،اعذب
ما يكره المرء نسيانه : الصبوات ،
الخيول ،
الكراكي الكئيبة ،
اعذب ما يكره المرء نسيانه : وطن
لم يكن عرضة للخراب ..

* * *

واسط ،
كانت في دمي آنية ،
من مطر ، على يديّ انحنت الطيور،
واصلت حديثها :
مملكة ضيعتها صبيحة الانين
وفي مساء السفر الشاحب
جفّت وردة ،
في طرف الضلع ،
بكت قبيلة في العين ..

* * *

اتبادلني الدمع بالدمع ، يا قمر الارض ،
والذكريات الرديئة بالذكريات الرديئة ،
.. ها ان بين ثيابي هفهفة السيسبان ،
البرودة ،
خصافة التمر ،
(خيط من الدقّ في حنكها
يشبه الشذر ..) (٨)
ها انني اتوزع :
اين التي عبّرت واحدا
من بنيها ،

(٥) الغطوة :غطاء خفيف، ذومسامات واسعة،غيرمقاوم للبرد.
(٦) من غناء الامهات لابنائهن فيجنوب العراق .
(٧) من اغاني الامهات ايضا .
(٨) الدقّ : الوشم .

وآخر .. (٩)
منكمشا ،
واسط ، الليلة ، امرأة
تردت في مدامعها خبزة (ان ما تثرد الامهات
شهيّ الى آخر العمر ..)
ها انني
اتقرب من قمر الكرخ :
هاجئت ،
هل ستبادلني الدمع بالدمع ،
(كانت تبادلني الدمع ..
كانت معذّبة ،
تتشبّث بي في الرحيل
لم يكن سفري في الضحى ،
كنت ارحل – انّ الاصحّ :اضيّع مملكة –
في صباح ثقيل ..)

* * *

لي من غبار الشجر المالح وردة ،
حملتها من حطب الفقر ،
الم تروا يديّ خرقة
مليئة بالريح ، وجهي سلّة
من حسك الفرّاف ..(١٠)
والشوارع المكتئبة
قصيدة ، بلّلها الدمع
وهذي الذكريات المتربه .. ؟

* * *

جئتك ، الآن ، أنّ ورائي نهرا
من الامّهات ، الخراب الذي جاء توا .
ورائي ،
ماضيا يتشقّق كالجرح
في اول النزف ، انّ ورائي
شجرا مالحا ،
ومخاوف
يعرفها اصدقائي ..
جئتك، الان ، هلاّ شممت دمي ،
ثمّ « عطّابة » (١١) تتناسل ،
هلاّ شممت اليدين، او القلب ؟
(ما كنت غير صبيّ
يشاجر اثوابه ،
ومساوئه الفضّة ..)
الآن اكتب :
ذا قمر كالعشيقة ،
ام وحشة ؟
ذا حصان يلوّح في كل باب
ام يد للخراب
واغنّي :

(٩) اغنية شعبية .
(١٠) الفرّاف : نهر واسط ، يشيع ،كثيرا،في اغاني الحب.
(١١) العطّابة:خرقة تشتعل فيها النار ببطء ،ودونما لهيب.

أذا ورقٌ
للشماتة ، ام ورق
للرثاء ؟
ام هوى يتوزع بين اثنتين :
بلادٌ احاول الفتها ،
وبلاد ورائي ..؟
آه .. جئتك ،
هل تبصر ، الان ، تحت الدم امراة ،
تتشبّث بي ؟ (يالهذا الخراب الذي عاشر الروح ..)
او ماضيا يتشبث ؟ (يالليخراب الذي ..)
وطنا ؟ (آه .. لو انّ في الارض ذاكرة
تستطيع التنكر ،
او تستطيع السلو ..)

* * *

بي هاجس :
هذا الخراب : الذهول
ارضان ،
ما بينهما يهدر الماضي ،
ضحاياه ،
وهذا القرويّ ،
الخجـول ..

* * *

حائط : يتهاوى على العشب ،
ذاكرةٌ : تنشط الان (من يستطيع تملك احلامه ؟)
وطن يتلوّى :
اخبئك ، الان ، للشيب ...
اعجز عن طفرهـا ....
مطرة الصيف ...
ماض : يرافقني كل يوم ،
الى الدمع ، والنوم ، والدائره
يتعقّبني : خطـوة ،
خطوة ،
حائطٌ :
كم تمنّيت ان يغلق الذاكره
وتمنيت ان يسقط الحدّ : بين بلاد
تعشقتها في الطفولة ريّانة ،
وبلاد ، اريد
الفة مـع شرطتها ،
وعصافيرها ،
وهواها الجديد ..
غير انّ الخراب الذي جاءني
مثلمـا يدخل اللصّ ، او مثلمـا
حائطٌ يتهاوى :
وواسطُ امٌ ،
وارض ،
وريح ،
لست املك غير تذكّرها
والبكاء عليها ..
وواسطُ
منشفةٌ للجريح ..
كان يهمس :
صوب بلاد ،
بلا تعـب ..

* * *

ذي وحشة
تكتظ ، غير اني
وسادة تغنّي:
ـ وابن زريق الواسطي يقول
هذا انا كالحجر الناتيء ،
هذا أنا ،

عصفورة
تعترض الريح
وتبقـى
رغم هذا البرد
سهرانـة ،
في دربها المشاكس ،
الممتد ..

* * *

ذي بلادٌ احاول الفتها ،
والتقرب من نبضها (ليس ينفعه العذل،
انّ علياً يجازف ،
ما بين ارضين ..)
اترك ما بيـن ارضين ،
ما يكتب الان :
هذا الخراب المشاغب ،
هذا العناء الجديد ..
(.. يجازف ..)
يا للخراب الذي
علّم الفقراء الكتابة ،
والمشي ما بين ارضين ..
علّمهم :
أنّ في حطب الفقر أرضا
بلا تعب ، واغاني
بلا كدمـات ،
وعلّمهم :
أن اعذب ما في الخراب المباغت :
فوضـاه ،
زحزحة القلب ،
اعذب ما فيـه ...
(كان عليّ مقلا ،
ولايكتب الشعر من دون خضخضة،
او عناء ..) (١٢)
ويعلمنـي :
انني اخترت هذا الطريق المبلّل :
لا ورقٌ للحلاقة ،
لا ورق للرثاء ..

علي جعفر العلاّق

---

(١٢) ممكن جدا ان الشاعر علي ابن زريق ما كان ليترك لنا قصيدته الوحيدة لولا مروره بذلك الخراب الذي كلفه هدوءه، واحباءه ، وبقاءه حيا حتى .